انهيار الأندلس
وشاهدان على المحنة الأخيرة *

للدكتور محمود على مكى

يذكر المـؤرخ الأندلسى ابن القـوطية من أخبار الزعيم العـربى الصميل بن حاتم الكلابى أنه « خطر يومـا بمـؤدب يؤدب الصبـيان وهو يقرأ « وتـلك الأيام نداولها بـين النـاس » (سـورة آل عـمـران ، آية ١٤٠) فقال الصـميل لفرط جهله معـتقداً أنه يصحح الآية للقـارىء : « نداولها بين العرب » فـقال له المـؤدب « بين الناس » فقال الصـميل : « وهكذا نزلت الآية ؟ » قـال له : نـعم ، هكذا نزلت · فـقـال الصـــمـــيل : والله إنى أرى هذا الأمـــر سيشركنا فيه العبيد والسفال والأراذل »[1]

القصة تصور هؤلاء الأعراب الجفاة بما طبعوا عليه من عجرفية بدوية وقد أخذهم الزهو بما قيضه الله للعرب من عزة وما فتح عليهم مـــن البلاد فى عـصر بـنى أمـية حتـى امـتـدت دولتـهم مـن تخـوم الـهنـد وأواســط آســيا حـتـــى جـبال البـــرتات (البـيرينيـه) على الحدود الفـرنسية ،ولا غرو فالصميل بن حاتم هذا هو حفيد شمر بن ذى الجوشن الكلابى الذى قتل الحسين بن على - رضى الله عنه - وحمل رأسه إلى يزيد بن معاوية ، وضاقت الأرض بعد ذلك بـه فـانتـقل إلى الـشـام ولحق ابنه بالجيـوش الخارجـة إلى المغـرب ثم كان حفيده الصميل من زعـماء العـرب الذين دخلوا الأندلس بعد فتحها بنحو ثلاثين سنة، وتزايد جاهه حتى أصبح بمـثابة وزير لآخر عمال بنى أمية فى الأندلس يوسف بن عبد الرحمن الفـهرى · وهو يمثل تلك العصبية البدوية التى اعتد بها خـلفاء بنى أمية حتى حسبوا أن ملكهم العربى باقٍ أبد الـدهر لن ينازعهم فيـه أحد · وقـد كان ذلك مـمكن التحقق لو أن العـرب ظلوا محافظين على قـيم الإسـلام التى نقلـتـهم من ظلمـات الجاهلـية إلى نور الإيمان والـتي كان لها الفضل فى مـد دولتهم شـرقاً وغـرباً وفى هداية الأمم المحـيطة بهم على أيديهم خلال

(*) ألقى هذا البحث فى الجلسة التاسعة من جلسـات المؤتمر يوم الأربعاء ٢٩ من شوال سنة ١٤١٣هـ الموافق ٢١ من أبريل سنة ١٩٩٣ م

السنوات القليلة التى أعقبت وفاة الرسول (عليه الصلاة والسلام) . نعم ، كانت دولة العرب جديرة بالبقاء لو لم يتخلوا عن بعض القيم الإسلامية التى أبدلتهم من الذل عزا ، ومن الخوف أمنا ، ومن الفقر سعة ، ومن الجهل علماً . « ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » (سورة الأنفال ، آية ٥٣) .

لقد أتى الإسلام بتشريع كفل به حقوق الإنسان على نحو لم تشهد له البشرية مثيلا من قبل ، فقد أقر مبدأ المساواة بين البشر ، وحقن دم الإنسان وحفظ له كرامته ، ودعا إلى تحرير الرقيق، ونادى بالتكافل الاجتماعى والتسامح الدينى وأطلق حرية الفكر والتعبير ، وغير ذلك من المبادىء التى عرضها الكتاب الذى وزع علينا منذ أيام بعنوان « حقوق الإنسان فى الإسلام » بتصدير من أستاذنا الدكتور إبراهيم بيومى مدكور وبشرح وتعليق من الأستاذ الجليل الدكتور عدنان الخطيب .

غير أنه لم تكد تنقضى خلافة الراشدين الأربعة رضى الله عنهم ويتولى مقاليد الحكم بنو أمية حتى رأينا بعض هذه القيم السامية يتوارى وتعود إلى الظهور رواسب من عادات وتقاليد جاهلية عمل الرسول (عليه الصلاة والسلام) وخلفاؤه من بعده على تحرير الأمة من ربقتها ، ومن هنا بدأ الاختلال الذى قدر له أن يستشرى فيما بعد .

ولعل من أهم المبادىء التى أَصَّلها الإسلام منذ عهد الرسول وخلفائه الراشدين مبدأ الشورى الذى سرعان ما عدل عنه أول خلفاء بنى أمية إلى نظام الحكم الوراثى المستبد آخذين به عَمَّنْ جاورهم من الأمم ، وأصبح هذا قاعدة جرت عليها معظم دول الإسلام فيما بعد .

وفى ذلك يقول الجاحظ متحدثا عن عصر بنى أمية : « تحولت فيه الإمامة ملكاً كسروياً والخلافة غصباً قيصرياً » ويقول مهيار الديلمى - مع أنه شاعر من أصل فارسى - وهو يتحدث عن الخلافة الأموية وأول متقلديها معاوية :

وردها عجماء كسروية
يضاع فيها الدين حفظاً للدول

صحيح أن من بين الخلفاء الذين آل إليهم الحكم بالوراثة من كانوا من عظام رجال الدولة ،

غيـــر أن هذا النظام أدى إلى أن يـتـولى الخلافة من لم يكن أهلاً لها · وكـثيراً ما تسبب حـرص الخلفاء على توريث أبنائهم الملك فى إثارة الصـراع بين أفراد الأسـرة الواحدة · وأسند العديد منهم ولاية العهد لأبناء صغـار فإذا ولى هؤلاء الخـلافة لم يكن هناك بد من أن يكونوا تحت وصـاية قادة الجيش أو بعض كـبار موظفى الدولة أو نساء القصـر ، بما يعنيه ذلك من النزاع حول السلطة وإهمال مصالح الرعية ·

والغريب هو أن الفقـهاء الذين حفلت بهم الحياة الفكرية فى العالم الإسلامى لم يعـملوا على وضع قواعـد لتنظيم العـلاقة بين الحكام والرعيـة ، وهم الذين شرَّعوا لكل دقائق الحياة حتى لحالات فرضية لم يدر ببال أحد أن تحـدث فى الواقع · لقد كانوا يرون كل ما كان يقع على الرعية من مظالم بـسـبب هـذه الفـوضـى فى ولاية الخلافة ، ولكنهم لم يحاولوا وضع تشريع ثابت أو دستور يحدد الحـقوق والواجبات بالنسبة للحاكم والمـحكوم ، فتحول نظام الحكم فى مـعظم الدول الإسـلامـيـة إلى استبداد يتصرف فيـه الحاكم فى رعيته كما لو كانت أرواحهم وأموالهم ملكاً خاصاً ، إذ لم يكن مسئـولا أمام أحد · ولنذكر أن البـلاد الأوربية لم تبـدأ نهضـتهـا إلا منذ تحـددت العـلاقة بين الحكـام والرعيـة ، فوضع الشعب حداً لسلطة الملوك المطلقة ووضعت دساتير وتشـريعات مثل « الكارتا ماجنا » تـبين بوضوح إلى أى مـدى تصل سلطة الحكام وتجعل للمؤسسـات الشعبية رقـابة على السلطة التنفـيـذية · لقد كـان الصـراع الذى دار من أجـل الوصـول إلى تلك الدساتـير طويلا وداميـا فى كثـير من الأحيـان ، ولكنه كـان منطلقا لمـا بلغتـه هـذه البـلاد من نهضـة فى سـائر ميـادين الحياة · وكانت الشـعوب الإسلامية أولى بأن تقـوم بمثل ذلك بفـضل مـا تضمنتـه تعاليم الإسـلام من تقنين لحقـوق الإنسان لم يتـضمنه فى مـثل وضوحـه ودقتـه أى تشريع سابق ·

وسنرى من عـرضنا التـالى أن انهيـار دولة الإسلام فى الأندلس إنمـا كان يرجع إلى هذه الفـوضى فى ولاية الحكم · ولم يكن ذلك خللاً أصاب دولة المسلمين فى هذه البـلاد وحدها بل كـانَ عـامًا شـمل

أمصار الإسلام كلها · وهو الذى أدى فى المشرق إلى ما أصاب دول المسلمين هناك من ضعف وتخلف استفحلا على مر العصور ·

أما فى الأندلس - ذلك الركن القصى الذى كانت تحيط به القوى الأوربية المعادية - فقد كانت الأوضاع مؤذنة بنهاية مأساوية فاجعة هى محو كلمة الإسلام من هذه البلاد وإن كان الشعب المسلم هناك قد أبلى أحسن البلاء فى الدفاع عن عقيدته وكيانه على مدى قرون طويلة · وعلى كل حال فهناك حقيقة تبدو لنا واضحة ، وهى أن الشعوب الإسلامية سواء فى المشرق أو فى الأندلس كانت أكثر وعياً وأرقى مستوى بكثير من قياداتها ، فظلت متماسكة إلى حد بعيد على الرغم من فساد الحكام والحكومات ·

مراحل انهيار الدولة الإسلامية فى الأندلس

فتح العرب الأندلس فى سنة ٩٢ للهجرة (٧١١ م ·) وسقطت غرناطة آخر معاقل الإسلام فى هذه البلاد فى سنة ٨٩٧ (١٤٩٢) أى أنه كان للإسلام وجود سياسى على أرض شبه الجزيرة على مدى ثمانية قرون ، على أن الإسلام بقى عقيدة حافظت عليها بقية الشعب الأندلسى مستميتة فى الدفاع عنها على مدى يقرب من قرن ونصف أو قرنين بعد زوال دولة الإسلام ، على الرغم من قرارات الطرد المتوالية ومن حملات الاضطهاد والتنكيل التى تعرض لها المسلمون « الموريسكيون » على يد «ديوان التحقيق» (La Inquisicion) بإجراءاته التى قل أن تعرف مثيلا فى التاريخ لقسوتها وبشاعتها ·

على أن الوجود الإسلامى فى الأندلس لم يكن على درجة واحدة من القوة · فقد بدأ مع الفتوح الأولى مهيمنا على كل شبه الجزيرة ، بل إن الحملات الأولى تجاوزت جبال البرتات شمالا وامتدت عبر مساحات واسعة من فرنسا وشمالى إيطاليا وسويسرا · ثم شرع الإسلام ينحسر بالتدريج عن هذه البلاد

حتى لم يعد للمسلمين دولة فى شبه الجزيرة خلال القرنين الأخيرين إلا فى رقعة ضيقة تبلغ نحو ثمن هذه المساحة الجغرافية وإن بقيت مجموعات كبيرة من المسلمين تعيش فى البلاد الخاضعة للحكومات المسيحية ، وكان هؤلاء يدعون « المدَّجنين Mudéjares » أى المسالمين الوادعين · وتعايش هؤلاء مع جيرانهم المسيحيين متمتعين بقدر لابأس به من التسامح أول الأمر حتى سقطت غرناطة فتحولت سياسة الدولة إلى الاضطهاد العنيف ·

وسنحاول أن نعرض لمراحل تقلص دولة الإسلام فى الأندلس حتى انهيارها فى النهاية محاولين الاقتراب من الملابسات والأسباب التى أدت إلى هذا الانهيار التدريجى :

١ - بين سنتى ١٢٣ و ١٣٦ (٧٤٠ - ٧٥٣) :

لم تكد تمضى على ملحمة فتح الأندلس ثلاثون سنة حتى ثارت بين الفاتحين فتن وحروب أهلية ضارية ، بسبب ألوان من العصبيات : بين القحطانية والعدنانية ، وبين العرب البلديين (الذين شاركوا فى حملات الفتح الأولى) والشاميين (الذين قدموا بعد ذلك فيما يسمى « طالعة بلج بن بشر القشيرى » فى سنة ١٢٣/ ٧٤٠) ، وأخيراً بين العرب والبربر · ولم تكن هذه الفتن إلا صدى لسياسة الخلفاء الأمويين فى المشرق ، إذ كانوا يعملون على إثارة العصبيات القبلية التى أتى الإسلام داعيًا إلى نبذها ، فرأى الأمويون تهييجها من جديد ، معتقدين أن ذلك يشغل العرب عن المعارضة السياسية لنظامهم · ومن ناحية أخرى كان كثير من ولاة الأمويين على الأمصار متشبعين بالعصبية للعرب ، فكانوا يعاملون الموالى (الفرس فى المشرق والبربر فى المغرب) معاملة فيها كثير من القسوة · وكان ذلك أيضا خروجًا على مبادىء الإسلام التى سوَّت بين المسلمين جميعا على اختلاف أعراقهم وألوانهم · وأدى ذلك إلى ثورة الموالى فانضم الكثيرون منهم إلى الأحزاب المعارضة ولاسيما الشيعة فى شرق الدولة والخوارج

فى غـربها · وهكذا نـشبت ثورات بالغـة العنف فى شمـال إفريقـية مهـددة الوجود الإسلامى نفـسه واضطر الخلفـاء الأمويين إلى ضرب هذه الثورات بكل قوة · أما فى الأندلس فـقد تردد صدى هذه الـثورة فى أنحـاء البلاد خـلال السنوات الأخيـرة من حكم بنى أمـية · وكـان المـسلمون قـد استقروا فى المناطق التـى تقع فى المناطق الشمـاليـة والشمالية الغـربية مـن شبـه الجـزيـرة (أشتوريش Asturias وجليقية Galicia) وكـان أكثـر هؤلاء من البـربر · فلما اسـتعرت نيـران الحرب فى الجنوب أسرع ساكـنو هذه المناطق من عرب وبربر بالهجرة إلى الوسط والجنوب حتى ينضموا كلٌّ إلى فـريقـه ، ودارت بين الجـانبـين معـركة هائلة فى وادى سليط GuaZalete (جنوبى طليطلة) فى سنة ١٢٤ (٧٤١) انتهت بانتصار العرب وكسر شـوكة البربر · وهكذا أخليت المناطق الشمالية من سكانها المسلمين بغير هزيمة · ومن ناحية أخرى أدى اشتـغال الفاتحـين بهذه المـعارك إلى إهمال عـمارة الأندلس فـأخذت الحـقول والمزارع تـخلو من ساكنيـها فوقـعت فى البلاد مـجاعة كبيـرة كانت سببـا آخر فى ازدياد الهجرة من الشمال · وبهذا اتسعت الدويلة المسـيحيـة الناشئة فى أشـتوريش وجليـقية اتـساعاً كـبيـراً بشكل مفـاجىء أصـبـحت به أضعـاف حجـمـهـا الأول وأصبحت تمتد على طول الشريط العريض الواقع بين حوضى نهرى المنيو Rio Min-ho والدويرة Rio Duero وكان احـتلال المسيحيين لهذه المنطقة الواسعة بغير جهد يذكر ، وهكذا خـسر المسلمـون نحو ربع شبه الجزيرة من غيـر حرب ، وإنما نتيجة للخصومات القبلية والعنصرية ·

٢ – الفتنة البربرية (بين ٣٩٩ و٤٢٢/١٠٠٨ – ١٠٣٠) :

كـان من لطف الله بالـمـسلمـين فى الأندلس أن قيض لهـا خلال هذه السنوات المـضطربة قـدوم أمـيـر شـاب من فلول الأسـرة الأموية التى عـصف العبـاسيـون بدولتها فى سنة ١٣٢ (٧٥٠) ·

هذا الأمير هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عـبد الملك الملقب بالداخل وبصقـر قريش · وقد اسـتطاع هذا الفتى الأموى الهـرب من مطاردات العـباسيـين

والوصول إلى الأندلس فى سنة ١٣٨ (٧٥٦) فى وقت كان الأندلسيون فيه قد سئموا هذه الحروب الأهلية التى لم تعد عليهم إلا بالخراب · فأسرعوا إلى مبايعته ، وبدأ بذلك بناء الدولة الأموية الجديدة التى قدر لها أن تستمر فى حكم البلاد قرابة ثلاثة قرون :بدأت إمارة مستقلة فلما استقامت أمورها وتحولت إلى دولة قوية غنية موفورة الموارد أعلن أميرها الثامن عبد الرحمن بن محمد نفسه خليفة للمسلمين وتلقب بالناصر لدين الله ، وذلك فى سنة ٣١٦ (٩٢٩) متحديا بذلك خلافة العباسيين فى بغداد والشيعة العبيدية فى القيروان · وكان أمراء بنى أمية قد أحسنوا الاستفادة من دروس التاريخ الماضية ولاسيما من أخطاء خلفائهم فى المشرق · فعملوا على أن يجعلوا من المجتمع الأندلسى المسلم مجتمعًا متماسكا موحدا لامكان فيه للعصبيات القبلية أو العرقية ، وساسوا البلاد سياسة بعيدة عن الاستبداد الذى اتسم به سلوك العباسيين والعبيديين · فأسندوا أمور دولتهم إلى طائفة من الرجال الأكفاء الذين توخوا اختيارهم بعناية · وهكذا استطاعوا أن يقيموا نظامًا أقرب إلى الشورى · فقد قسموا إدارة الدولة إلى مجموعة من الوظائف يقوم بها عدد من الوزراء كانوا يدعون « الُخزَّان » كل له اختصاصه المحدد ، وكان لهؤلاء سلطة الاعتراض حتى على الأمير نفسه · ويكفى للتدليل على ذلك أن نذكر هذا الخبر الذى احتفظ لنا به المؤرخ ابن القوطية فى معرض أخبار المغنى المشهور زرياب · ذلك أن زرياب غنى الأمير عبد الرحمن بن الحكم الأوسط يوماً صوتاً استحسنه فقال : يؤمر الخُزَّان أن يدفعوا إليه ثلاثين ألف دينار · فأتاهم صاحب الرسائل بعهد الأمير ، وكان لهؤلاء رئيس هو الحاجب موسى بن حدير تولى الإجابة على مطلب الأمير ، فقال : نحن وإن كنا خزان الأمير أبقاه الله فنحن خزان المسلمين : نجبى أموالهم وننفقها فى مصالحهم · ولا والله ما ينفذ هذا ولا منَّا أحد يرضى أن يُرَى هذا فى صحيفته غدًا : أن نأخذ ثلاثين ألفاً من أموال المسلمين وندفعها إلى مُغَنٍّ فى صوت غناه · يدفع إليه الأمير أبقاه الله ذلك من عنده · فانصرف صاحب الرسائل بهذا

الجواب إلى الأمـير ، ولكن عبـد الرحمن لم يغضـب بل وافق على ماقـاله الحاجب وأثنى عليـه ودفع لزرياب ما أراد من مـاله الخاص .

وقد سـارت أمور الدولة بفـضل هذه السياسة الحكيـمة عـلى جـادة الاستقـامة، وبـلغت ذروة عـظمتهـا فـى أيـام عبـد الرحـمـن الـنـاصـروابـنـه الحـكم المسـتنـصر (٣٠٠ - ٣٦٦ / ٩١٢ - ٩٧٦) . غير أن الأمور بدأت فـى التغير فى أواخـر عـهـد الحكم ، ولـعل بداية الاختلال كانت الخـروج على التقليد الذى جرى عليـه الأمويون من تولية العهـد أكفأ الأبناء أو رجال الأسرة . وقـد تنبه مؤرخ الأندلس ابن حـيان القـرطبى بثـاقب نظره إلى ذلك فى تقويمه لخلافة الحكم المستنصر إذ يقول :

« انتهت خلافـة بنى مروان إلى الحكم تاسع الأئمـة فيـهـا ، فتناهت فى السـرو والجـلالة والكمـال والأبهـة . ونظم رواة الأخبار وحملة الآثار من مـناقبه ماطار كل مطار فى جميع الأقطار. إلا أنه- تغمد الله خطاياه - مع ماوصف من رجاحة كان ممن استهواه حب الولد ، وأفرط فيه ، وخالف الحـزم فى توريثـه الملك بعـده ابنًا فى سن الصبا ، دون مشيخة الإخوة وفتيان العشيرة ومن يكمل للإمامة بلا محاباة ، فرط هوى ووهلة انتقـدها الناس على الحكم وعدوها الجانية على دولته . وقد كـان يعيبها على ولـد العباس قبـله ، فأتـاها هـو مختاراً . ولامَـرَدَّ لأمـر الله ! .. وذلـك أنه نفس بسلـطانـه على ثـلاثـة رجـال من إخـوته ولد الناصـر : عـبـد العـزيز شـقيـقـه ، والأصبـغ والمغيرة ، مـع جماعـة من ولد الخلفاء كهـول وشبان مافيـهم إلا مضطلع بالأمر قوى عليـه: فتخطى جمـاعتهم إلى ابنه هشـام وهو فى الوقت طفل مـا بلغ الحلم » .

كان هذا هو الخطـأ الأول الذى ارتكبه الخليـفـة الحكم إذ ولى عـهـده ابنه الطفل هشامًا مع وجود من كان كـفئا لتولى الأمر من إخوته وأبناء عمومته ، مقلدًا فى ذلك مـا كـان جـاريا فى دولة العـبـاسـيين فى المشرق . وقـد أدى ذلك بعد وفـاة الحكم إلى أن هذا الخليـفـة الـطفل أصـبح تحت وصاية أمه وبعـض الوزراء وقادة الجيش ، فبدأت المؤامـرات والدسائس والصراع على

السلطة بين القوى السياسية وانتهى الأمر إلى أن آل الحكم إلى المنصور بن أبى عامر الذى ولى الحجابة (أى رياسة الوزراء) ولكنه فرض على البلاد حكمًا استبداديًا غيَّر به رسوم الدولة ، فأزال عن طريقه من كان يخشى منافستهم من أكفاء الرجال الذين كانوا دائما من أعمدة نظام حكم الدولة الأموية ·

وأما الخطأ الثانى الذى نص عليه ابن حيان أيضا فهو أن الحكم قد استكثر من استجلاب الجنود المرتزقة من بربر شمال إفريقيا ولاسيما من قبيل صنهاجة، وكان أمراء بنى أمية الذين سبقوه يستعينون بفرق من هؤلاء الجنود كانوا يدعون « الطنجيين » ولكن بشكل محدود· إذ إنهم كانوا يعتمدون فى نظامهم الحربى على عسكر الأندلس · ولما أتى المنصور بن أبى عامر استكثر من هؤلاء البربر المرتزقة حتى أصبحوا عماد جيشه ، واستغنى بذلك عن كثير من الجنود الأندلسيين لشكه فى ولائهم له· وقد كانت هذه « الأرستقراطية » العسكرية التى أوجدها المنصور هي العامل الأول المحرك لما خضب أرض الأندلس بعد ذلك من الدماء فى الحروب الأهلية · ويقول ابن حيان إن هؤلاء هم السبب فى « إبطال الخلافة وتفريق الجماعة والتمهيد للفتنة والإشراف بالجزيرة على الهلكة »

وكان المنصور بن أبى عامر الذى حكم الأندلس باسم الخليفة الطفل هشام المؤيد فيما بين سنتى ٣٦٧ و ٣٩٢ (٩٧٧ - ١٠٠٢) من أكثر رجال الدولة الذين عرفهم التاريخ دهاءً وأقواهم شخصية · وكان يعرف أنه مغتصب للملك فأراد أن يكتسب أمام شعبه الأندلسى من المآثر ما يؤصل تقديره وحبه ·

فكان الجهاد فى سبيل الإسلام هو طريقه إلى ذلك · ومن هنا كانت غزواته المستمرة للإمارات النصرانية فى الشمال، وهى غزوات وصلت إلى اثنتين وخمسين بلغ فيها مالم يبلغه حاكم مسلم من قبل ، غير أنها كانت حملات ضئيلة الحصيلة والمنفعة للمسلمين وإن كانت تبهر النظر وتحيط شخصيه قائدها بهالة من المجد ، ذلك لأنه كان يعمد فيها إلى تخريب مدائن النصارى وتدميرها ثم العودة بالأسلاب والغنائم ،

ولم يحاول أن يحمل رعاياه على سكنى المناطق التى كانت جيوشه تفتحها · ولو أنه فعل لرسخت أقدام المسلمين فيها ولاستردوا بذلك ما كانوا فقدوه من قبل ·

واستطاع المنصور بشخصيته القوية أن يسيطر على كل القوى السياسية فى أثناء حياته ، غير أنه بعد وفاته وبعد سنوات قليلة من ولاية ابنه عبد الملك المظفر الحجابة انتهت السلطة إلى ابن آخر له هو عبد الرحمن الملقب بشنجول ، وكان فتى أرعن لم تتوافر له كفاءة أبيه ولا أخيه ، فسرعان ما نشبت الثورة التى أعلنها المطالبون بالخلافة من الأسرة الأموية ، ولكن التنافس بين هؤلاء وتدخل الفرق العسكرية البربرية انتهى إلي إشعال نار الحرب الأهلية التى استمرت نحو ربع قرن وكان ختامها إلغاء الخلافة الأموية جملة وبدء عصر جديد تمزقت فيه الأندلس وهوالمعروف باسم عصر ملوك الطوائف · وهكذا أسرع الفساد إلى الدولة الأندلسية التى ظلت على مدى ثلاثة قرون نموذجًا للحكم السليم الصالح ، ومما يصور مأساة الأندلس خلال هذه السنوات المشئومة أن المتنافسين على الخلافة قد استعانوا بفرق مرتزقة من الجنود النصارى من إمارتى قشتالة وقطلونية وهكذا بدأ تدخل الدويلات المسيحية فى شئون الأندلس بعد أقل من عشر سنوات من وفاة المنصور بن أبى عامر ·

٣ – بين كائنة بربشتر وسقوط طليطلة :

(٤٥٦ – ٤٧٨ / ١٠٦٤ – ١٠٨٥) :

منذ أن ألغيت الخلافة وتغلب كل قائد أو والٍ على ما بيده إذا بنا نرى الأندلس وكانت دولة واحدة قوية تنقسم إلى نحوستين دويلة يحكمها أمراء ضعاف قصار النظر ، كان هَمُّ كل منهم أن يوسع إمارته على حساب جيرانه ، فنشبت بينهم فتن وحروب لم تنقطع ، وكان الشعب الأندلسى المسلم هو الذى يدفع ثمن كل ما كان يرتكبه هؤلاء الأمراء من جرائم فى حق دينهم ووطنهم · وكثيراً ما حاول بعض الفقهاء ورجال الفكر الإصلاح بين هؤلاء الأمراء وإفهامهم مدى جنايتهم على الإسلام ، فكانوا يولون مواعظ هؤلاء الناصحين آذاناً موقرة ، واستمروا سادرين

فى مبـاذلهم وفى صراعاتـهم ، على حين كانت أوروبا التى بدأت تصحو من غفوتها تتربص بهم وترقب أول فـرصة تسنح لكى تلحق بهم ضرباتها ·

وحانت هذه الفرصـة فى رمضان سنة ٤٥٦(سبتمبر ١٠٦٤) حينما تألفت حملة أوربية كـبيرة دعـا لها البابا واشـترك فيـها «جيوم دى مونترى» حامل شعار البابوية ، وملك أرغـــون وكـونت أورخـيـل قـائد الجيـوش القطلانية وروبيـركريسبـين قائد جيوش أكويتانيا فى جنوبى فرنسا و « جى جوفـروا » قائد جيوش بواتيـيه وبوردو · فهـاجمت هذه الجـيوش المـؤتلفة مـدينة بربشتر Barbastro الواقعة على سفح جبال البرتات وعـاصمة بـلد برطانية Boltana وكانت مـدينة قد رسخت فـيها الحـضارة الإسلامية منذ الفـتح وكانت تعد من أزهر مدن الثـغر الأعلى ، فـحاصـرها الأعداء محـاصرة طويلة وتقـاعس ملوك الطوائف عن نصرتها ، ففتحـوها بعد مقاومة باسلة من أهلهـــا وألحـقـوا بهـا مـن المـذابح والتخريب ما أسهب فى وصفه ابن حيان·

والحقيقة أن هذه هى أول حملةصليبية بمعنى الكلمة فهى تسـبق الحملة الصليبية الأولى على الشـرق العربـى بنحو أربعـين سنة · ولا شك أن نجـاح الصليبـيين فى الاستيـلاء على بربشتر هو الذى شـجعهم على خوض مغامرتهم الشرقية · صحيح أن المسلمين استردوا المدينـة فى السنة التالية ، ولكن قـدرة الإمـارات الأوربيـــة المؤتلفـة على مهـاجمة حـدود الأندلس كشف عن ضعف المسلمين فى هذه البلاد وكان نذيراً بأن مـثل هذه الحـــمـلات سـوف تتكرر مادامت الأوضـاع هناك على هذا النحو من التدهور ·

وحدث ذلك بالفـعل، إذ لم تمض على كـائنة بربشتـر عـشرون سنة حـتى روعت الأندلس بالواقعة الكبـرى التى تعد البداية الحقـيقـية لانهيـار سلطان المسلـمين فى البلاد، وتـغير مـيزان القوى لصالح الدول النصـرانيـة · ونعنى بذلك اسـتيـلاء ملك قـشتـــالة فى سنـة ٤٧٨ (١٠٨٥) على طليطلة عـاصمة الـقوط القـديمـة · وأخطر مـا فى الأمر أن طليطلة تقع فى وسط شبه

الجـزيرة فكـان سـقـوطها مـؤذنا بفـصل الجـبهة الشـماليـة (الثغـر الأعلى) عن الجنوب · وبهذا يمكن القـيام بضرب كل منطفـة على حـدة · وهذه الحـقـيـقـة « الإستـراتيجية » هى التى عـبر عنها الفقـيه الطليطلى ابن العسـال فى أبياته التى يقول فيها :

ياأهل أندلس حثوا مطيكم

فما المقام بها إلا من الغلط

الثوب ينسل من أطرافه وأرى

ثوب الجزيرة منسولا من الوسط

وملأت واقـعة طليطلة بالذعـر نفوس ملوك الطوائف ، ولكنهم كانوا أعجز عن محاولة استرداد المدينة ، وبلغ أسماعهم قيام دولة إسلامـية فـتية علـى الشاطىء المقابل للبحر المتوسط هى دولة المرابطين مـن أهل اللثام التى كان مهدها موريطانيا الحالية والصحراء المغربية ، فبادر ملوك الطوائف تحت ضـغط رعـايـاهم إلى الاستنجاد بيوسف بن تاشفين أمير هذه الدولة ولم يقصر هذا الأمير العظيم فى الاسـتجابة لصريخ الأندلسيين فجـاز المضـيق بقواته والتأم به بعض ملوك الطوائف وتوجه الجيش إلى طليطلـة ،ولم يكد الأذفـونش(ألفونسو السادس) يسمع بقدوم يوسف بن تاشفين حـتى جـمع جـيـوشـه ومن التف به من المتطوعين الفرنسيـين وسار للقاء التحالف الإسلامى وقـد أسكره غرور ظفـره السهل بطليطلة · ودارت الـمعـركـة الهـائلة فى سهل الزلاقة بجـوار مدينة بطليوس Bada-joz ، وانتـهت (فى سنة ٤٧٩/١٠٨٦) بانتصار كـبير للمسلمين أحيـا فى نفوسهم الأمل بتـجدد الدولة : غيـر أن يوسف بن تاشفين لـم يعمل على اسـتثمار هذا النصر فى اسـتـرجـاع طليطلة لـظروف ليس هنا محل استقصائها ·

ومع أن هذا الانتصـار كان كفـيلا بأن يوقظ ملوك الطـوائف ويقنعـهم بضـرورة الأئتلاف لمواجـهة الخطر المشتـرك فإنهم عادوا - بعد رجوع يوسف بن تاشفين إلى المغـرب - إلى نزاعاتهم وإلى استعـانتهم بالنصارى المـجاورين لهم ، بل وإلى دفع إتاوات لهم · وحينما ضـاقت الرعية بهم بعثـوا وفودًا إلى ابن تاشـفين يدعـونه إلى الجواز من جديد وإلى خلع هولاء الأمراء

الذين لم يعد هناك سبيل لإصلاح أمورهم وهكذا عاد ابن تاشفين إلى الأندلس ، فخلع كل هؤلاء الملوك وأصبحت الأندلس إحدى ولايات دولته الكبيرة · وكان ذلك أول خطوة فى توحيد المغرب والأندلس تحت راية واحدة · ولاشك فى أن حكم المرابطين للأندلس هو الذى حمى هذه البلاد ومد فى عمر الإسلام فيها وقد كان مشفيا على الانهيار ·

٤ - سقوط الثغر الأعلى سنة ٥١٢ (١١١٨) :

غير أن المرابطين على الرغم من جهودهم فى حماية الأندلس وفى التصدى لهجمات الممالك النصرانية لم تهنأ لهم الأحوال فى حكم الأندلس ، بل واجهوا صعوبات كثيرة كان من أولها ما كان ينشب من ثورات على حكمهم من جانب الزعماء والقادة الأندلسيين الذين كانوا يرون فى هؤلاء الصحراويين من أهل اللثام شعبا أدنى منهم فى مضمار الحضارة ، فكانوا يضيقون بحكمهم ويتوقون إلى رفع وصايتهم عن أعناقهم متناسين فضل هؤلاء المجاهدين فى حماية أرواحهم وعقيدتهم ومن ناحية أخرى كانت الدولة النصرانية المحيطة بالأندلس لاتكف عن توجيه حملاتها على أرض الإسلام ، وأخطر من ذلك كان الثورة التى أعلنها عليهم فى صميم بلاد المغرب محمد بن تومرت مهدى دعوة الموحدين منذ أوائل القرن السادس · وهكذا رأى المرابطون أنفسهم بين نيران ثلاث : تذمر القادة الأندلسيين وإثارتهم الشغب فى وجوههم ، وحملات الدول النصرانية التى لم تتوقف قط ثم ثورة المهدى فى جبال السوس فى عقر دارهم · وكان عليهم أن يقاتلوا فى هذه الجبهات الثلاث · وقد أدى ذلك إلى انهيار خطوطهم الدفاعية ولاسيما فى الشمال · وأخيراً تمكن ملك أرغون ألفونسو الأول المعروف بالمحارب Alfonso I, el Batallador من الاستيلاء على سرقسطة عاصمة الثغر الأعلى الأندلسى بعد حصار استمر أربع سنوات ، وذلك فى سنة ٥١٢ (١١١٨) ·

٥ - من معركة العقاب حتى سقوط إشبيلية : (٦٠٩ - ٦٤٦ / ١٢١٢ - ١٢٤٨)

كانت القوى التى تكالبت على دولة المرابطين من نصرانية وإسلامية أقوى من أن تتحملها دولتهم ، مع أنهم أخلصوا النية وأبلوا أحسن البلاء فى مدافعة أعدائهم فى

الخـارج والداخل · فلم تلبث دولتـهم أن انهارت فى المغـرب على أيدى الموحدين بزعـــامـة عـبـــد المـؤمـن بن على أول خلفائهم ووارث دعـوة ابن تومرت · ولـم يكد المـوحدون يـحرزون هـذا الانتـصـار حتى جـازوا إلى الأنـدلـس فى سنة ٥٤١ (١١٤٧) وانضم إلى دعـوتهم كثـير من الزعماء الثائرين على المرابطين ، وشرعوا يستولون على القواعد الأندلسية تباعا حتى لم تـمض سنوات إلا وقـــد ورثـوا دولة المـرابطين فـى البـلاد ، وورثوا مـعـهـا مـسئـولية حـماية الإسـلام فيـها ، وقـد اضطلعوا بالفـعل بهذه المسئولـية بقدر من الكفـاءة طوال خـلافة الـسـلاطين الثـلاثة الأولين: عبد المؤمن بن على وابنه يوسف وحفيده يعقوب المنصور أى إلى نهاية القرن السادس الهجرى · ولعل أبرز مظهر لذلك انتصارهم الكـبير على الائتلاف النصرانى الذى حشد بزعامة ملك قشتـالة ألفونسو الثامن فى معركة الأرك Alarcos فى سـنة ٥٩١ (١١٩٥) وهى معركة كـانت تشبه فى ضـراوتهـا مـعـركـة الزلاقـة ، ولكن يعقـوب المنصور لم يستثـمرها بدوره فى استعادة مساحـة كبيرة من أرض المسلمين المـفقـودة ، إلا أنها على الأقل حـافظت على مابقى فى أيديهم من شبه الجزيرة ·

ومع ذلك فـقد كـان أداء الموحـدين العسكرى أقل كفـاءة من أداء المرابطين ، هذا على الرغم من أن جـيـوشهم كـانت غاية فى الضـخامة وكثافـة العدد ، وذلك لأن قـياداتهم - وكـانت فى الغالب تسند « للسادة » أى أبناء الأسرة الحـاكمة - لم تكن على درجة عالية من الكفاءة ، ثم إن الاستكـثار من عدد الـجنود ولاسيـما من المطوعة غـير المحـترفين وثقل المـعدات التى كانوا يستخدمونها وتنافر العناصر التى كانت جـيوشهم تتـألف منها - كل ذلك كان كثيراً ما يؤدى إلى بطء حركة الجيوش وصعوبة تموينها واضطراب صفوفها ·

وقـد بدا ذلـك واضـحًا حينـما ولـى خـلافـة الـمـوحـــديـــن رجال لـم يتـمـتـنعـوا بمواهب الثـــلاثة الأول فقـد خـلـف يعـقـوب المـنـصـور ابـــنه محـــمد النـاصر الـذى أعـد حملة كبيرة أراد أن يحقق بها على المسـيحيين نصراً مثل نـصـــر والـده · والتـــقى به من جـــديد

ألفونسو الثامن زعيم الائتلاف النصرانى الذى منى بالهزيمة قبل · ودارت هذه المعركة فى الموضع المسمى بالعقاب Navas de Tolosa فى سنة ٦٠٩ (١٢١٢) ، ولكنها انتهت بهزيمة ساحقة للمسلمين

وكشفت هزيمة العقاب عن خلل نظام الدولة فى عصر محمد الناصر ومن أتى بعده من خلفاء الموحدين ، وسرعان ماعاد التنافس على الحكم بين الإخوة وأبناء العمومة ، فدارت بينهم حروب أهلية طاحنة كان مسرحها المغرب والأندلس، وبدأت دولة الموحدين مرحلة احتضار بطىء استمر على مدى أكثر من نصف قرن· وانتهزت القوى المسيحية هذه الفرصة فوجهت ضرباتها المتوالية على الأندلس الإسلامية ، لاسيما وقد ولى الحكم ملوك على قدر كبير من الكفاءة والحماسة الدينية فى المملكتين الرئيسيتين : قشتالة وأرغون · أما قشتالة فقد كان يحكمها فرناندو الثالث المعروف بالقديس Fernando III, el Santo (٦١٣ - ٦٥٠ / ١٢١٧ - ١٢٥٢) وهو الذى انتزع من المسلمين قواعدهم الكبرى فى موسطة الأندلس : قرطبة فى ٦٣٣/١٢٣٦ ومرسية فى ٦٤٠/١٢٤٣ وجيان فى ٦٤٣/١٢٤٦ وأخيراً إشبيلية كبرى مدن الأندلس فى ٦٤٦/١٢٤٨ · وأما أرغون فقد كان يحكمها أيضا ملك لم يكن دون ملك قشتالة مقدرة ورغبة مسعورة فى القضاء على سلطان المسلمين فى شرق الأندلس · وفى خلال حكمه الطويل (٦١٠ / ١٢١٣ - ٦٧٤/١٢٧٦) استطاع أن يستولى على جزر البليار بين سنتى ٦٢٦ و ٦٢٩ (١٢٢٩ - ١٢٣٢) ثم منطقة بلنسية وشرق الأندلس بين سنتى ٦٢٩ و ٦٤٢ / ١٢٣٢ - ١٢٤٥ · وخلال هذه السنوات نفسها نشأت مملكة البرتغال التى تكفلت بالاستيلاء على مدن غرب الأندلس · وهكذا لم تمض أربعون سنة على معركة العقاب حتى كانت ممالك إسبانيا المسيحية تتقاسم معظم ما كان بأيدى المسلمين من أرض الأندلس· وفى هذه الظروف المأساوية ظهر زعيم أندلسى

أوتى قدرًا كبيرًا من الحكمة والشجاعة ، فعمل على استنقاذ مابقى من أشلاء الأندلس مؤسسا آخر دولها الإسلامية فى غرناطة · هذا الزعيم هو محمد بن الأحمر النصرى من سلالة قيس بن سعد بن عبادة الأنصارى ·

مملكة غرناطة حتى معركة طريف (سنة ٧٤١ / ١٣٤٠) :

لم تكن مملكة غرناطة التى أسسها الأمير النصرى محمد بن الأحمر إلا رقعة صغيرة لا تبلغ إلا ثمن شبه الجزيرة · وكانت ظواهر الأمور بعد الزحف المسيحى الجائح الذى انطلق على الأندلس الإسلامية من جبهات ثلاث هى قشتالة وأرغون والبرتغال - نقول: كانت ظواهر الأمور توحى بأن نهاية الإسلام فى الأندلس لم تعد إلا مسألة سنوات معدودة · ومع ذلك فربما كان من غرائب التاريخ أن هذه المملكة الإسلامية الصغيرة استطاعت مواجهة القوى المسيحية المتكالبة عليها على مدى قرنين ونصف قرن · وكان ذلك بغير شك بفضل صلابة الشعب الأندلسى وقدرته على التحمل وبفضل مهارة معظم سلاطين الدولة النصرية وتمكنهم فى براعة سياسية ذكية من محاربة الأعداء بنفس السلاح الذى استخدموه ضد مسلمى الأندلس ، وهو التضريب بين القوى المسيحية ومحالفة بعضها على بعض وانتهاج سياسة تزاوج بين المسالمة والمواجهة الشجاعة إذا اقتضى الأمر ذلك · كذلك استعان الأندلسيون بإخوانهم المسلمين فى العدوة المقابلة لسواحل بلادهم ، وكان يحكم المغرب آنذاك دولة ورثت ملك الموحدين هى دولة بنى مرين ، وكان سلاطينهم الأولون لايقلون رغبة فى الجهاد عن أسلافهم المرابطين والموحدين ·

وقد استمر هذا التعاون النصرى المرينى خلال القرن الأول من حياة دولة غرناطة وإن كان يشوبه أحيانا نزاع أو فتور فى العلاقات . وآتى هذا التعاون أكله فى حماية مملكة غرناطة ، فلم ينتقص من أطرافها شيء تقريبا حتى أواخر القرن الثامن الهجرى . هذا على الرغم من الهزيمة الكبيرة التى منى بها التحالف

النصرى المرينى فى سنة ٧٤١ (١٣٤٠) فى المعركة المعروفة باسم وقعة طريف Batalla del Tio Salado وكان يحكم غرناطة آنذاك أبو الحجاج يوسف الأول ويحكم المغرب أعظم سلاطين بني مرين أوب الحسن . وترتب على محنة المسلمين فى هذه الموقعة تحطيم الأسطول المغربى واستيلاء ألفونسو الحادى عشر ملك قشتالة على ثغرى الجزيرة الخضراء وطريف بالإضافة إلي العديد من المواقع فى شمالى مملكة غرناطة .

غير أن الغرناطيين سرعان ما استعادوا قدرتهم على المبادرة والحركة خلال حكم محمد الخامس الغنى بالله أعظم ملوك بنى الأحمر الذى حكم دولته لفترة طويلة توافق النصف الثانى من القرن الثامن (٧٥٥ - ٧٩٣ / ١٣٥٤ - ١٣٩١) وكان يعاونه فى معظم سنوات حكمه وزيره الأديب المؤرخ المشهور لسان الدين ابن الخطيب . وقد عرف محمد الغنى بالله كيف يزاوج فى علاقاته بالممالك النصرانية المجاورة بين المهادنة والحرب واستطاع أن يبث هيبته فى نفوس الملوك المجاورين وأن يمنح الشعب الأندلسى فترة طويلة من السلام والرخاء . وهكذا تجاوزت غرناطة محنة معركة طريف وبدت فى صورة من القوة المتجددة .

غرناطة خلال القرن التاسع :

قرن كامل انقضى بين وفاة أعظم سلاطين غرناطة محمد الغنى بالله وسقوط غرناطة الأخير فى أيدى الملكين الكاثوليكيين (٧٩٣ - ٨٩٧ / ١٣٩١ - ١٤٩٢) وهو القرن الذى يوافق احتضار هذه الدولة البطىء إلى أن أفضت إلى النهاية المحتومة . وقد ضنت علينا المصادر بأخبار مملكة بنى الأحمر خلال هذه الفترة الأخيرة ، فلسنا نجد فيها مؤرخين كباراً يتتبعون أخبارها كما كان الأمر بالنسبة للقرن الثامن الذى ازدان بشخصية الوزير المؤرخ الأديب لسان الدين بن الخطيب (توفى ٧٧٦ / ١٣٧٤) . وكل مالدينا حول غرناطة خلال القرن التاسع أخبار متفرقة احتفظت لنا بها موسوعات عامة مثل نفح الطيب وأزهار الرياض للمقرى أو مدونات تاريخية

صغيرة مجهولة المؤلف مثل كتاب أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر ، وفيه تاريخ للسنوات الأخيرة من حياة هذه الدولة · ولهذا فإننا كثيرًا ما نلجأ للمدونات المسيحية التى نجد فيها تفاصيل أكثر حول الدولة النصرية مما نجده فى المصادر العربية · حتى أسماء ملوك بنى نصر وتواريخ حكمهم لا تسلم من الاضطراب والتناقض · ومازال جدول أنساب هؤلاء الملوك وتسلسل إمارتهم غامضا لم يستقر بعد ·

أما الحياة السياسية فقد كانت تتسم بالاضطراب الشديد ، ويكفى أن نذكر أن معظم ملوك هذا القرن ولوا الحكم أكثر من مرة وذلك لكثرة الانقلابات التى كان يدبرها ضدهم أفراد من الأسرة الحاكمة ممن كانت تحدو بهم المطامع إلى تدبير انقلابات على السلطان القائم ، غير أن السلطان المخلوع كان بدوره يعمل جاهدًا على استرداد العرش · وكثيراً ما رأينا هذه النزاعات الدموية تنشب بين الإخوة أو بين الأب وابنه كما حدث فى آخر سنوات غرناطة حينما وقع ذلك الصراع العنيف بين أبى الحسن على وابنه أبى عبد الله محمد الذى تم على يديه سقوط غرناطة الأخير · وقد بلغ اضطراب الأمور حدًا رأينا معه أحد سلاطين غرناطة وهو محمد التاسع الغالب بالله الملقب بالأيسر يلى عرش البلاد خمس مرات على الأقل مابين سنتى ٨٢١ و ٨٥٨ (١٤١٩ - ١٤٥٤)، إذ تتخلل حكمه ثورات وانقلابات متعاقبة، مع أنه كان من خير ملوك غرناطة وأحكمهم تدبيرًا وأكثرهم شجاعة · وأسوأ ما كان فى هذه الانقلابات هو أنها كانت دائماً بتدخل أو بتحريض من ملوك قشتالة وكان الأمير الطامع فى العرش المضطلع بالثورة كثيراً ما يسلم للملك المسيحى لقاء معونته عددًا من المدن أو القلاع أو يدفع له إتاوة باهظة أو يتعهد بالخضوع الكامل له · فإذا وصل هذا الثائر إلى العرش وأخل بوعوده - وكان ذلك كثيراً ما يحدث إما تحت ضغط جماهير الشعب أو نتيجة صحوة ضمير يسترد خلالها شيئا من النخوة والحمية - فإن الحملات المسيحية المتوالية لاتفتأتشن غاراتها على أرض غرناطة منتزعة بالقوة مالم تستطع أخذه بالمعاقدات والعهود · والحقيقة أن العلة

الأولى فى هذا الاضطراب السياسى هو ماسبق أن أشرنا إليه مما أصبح عرفاً سائداً فى كل دول الإسلام ، وهو عدم تحديد نظام ثابت لولاية الملك منذ أن استبدل بالشورى مبدأ وراثة الخلافة · ولم تكن دولة غرناطة بدعًا فى ذلك ، غير أن الأمر هنا كان أخطر ، إذ إن هذه الدولة الإسلامية الصغيرة التى بقيت جسمًا غريباً فى قارة أوربا المسيحية كانت محاطة بالأعداء من كل جانب ، وكانوا أعداء يزدادون شراسة يومًا بعد يوم ·

ولهذا فإننا نعد من عجائب التاريخ أنه على الرغم من هذه الأحوال التى كانت تتفاقم سوءًا فإن مملكة غرناطة استطاعت أن تقاوم ذلك الزحف المسيحى المستمر على مدى قرن كامل · وقد كانت من قبل- حتى نهاية القرن الثامن - تستمد بعض القوة من المعونة التى كانت تتلقاها من بلاد الشمال الإفريقى المجاورة ولاسيما من دولة بنى مرين فى المغرب الأقصى ، فالواقع أن المغاربة لم يقصروا أبدًا فى مَدِّ يَدِ العون لدولة غرناطة باسم الجهاد فى سبيل نصرة الإسلام · غير أن أحوال المغرب تدهورت تدهوراً خطيراً خلال القرن التاسع الهجرى ، ونشب النزاع أيضا بين أفراد الأسرة المالكة فى المغرب فأصاب حكوماته العجز والشلل حتى لم يعد قادراً على حماية أراضيه فضلا عن تقديم المساعدة لغرناطة باسم الأخوة الإسلامية · وضاعف من هذا العجز استيلاء المسيحيين على المواقع البحرية التى يمكن أن تصل عن طريقها المعونات إلى الأندلس مثل الجزيرة الخضراء وجبل طارق وطريف · وكثيراً ما شخص الغرناطيون بأبصارهم إلى بلاد المشرق الإسلامية ، فبعثوا سفارات إلى تونس حيث كان الحفصيون يحكمون وإلى مصر يستصرخون سلاطينها المماليك ، ولكن تونس ومصر كانتا فى حالة لاتقل سوءاً عما كان يسود الأندلس ، فقد كانت الدولتان هناك فى أواخر القرن التاسع تلفظان آخر أنفاسهما · ولهذا فلم تظفر غرناطة منهما إلا بالتمنيات الطيبة والتأييد العاطفى · وأحيا الأمل فى نفوس الغرناطيين ماوصل إلى أسماعهم من استيلاء السلطان العثمانى محمد الفاتح

على القسطنطينية سنة ٨٥٧ (١٤٥٣) فبعثوا بسفارة إلى هذا السلطان أيضا ، غير أن العثمانيين كانوا مشغولين بتدبير خططهم لفتح الشرق العربى من ناحية وللامتداد عبر أوروبا الشرقية من ناحية أخرى ، فلم يولوا صريخ الأندلسيين آذانا صاغية · بل إن هذا التوسع العثمانى فى أوربا المسيحية زاد من ضراوة المسيحيين الغربيين وتصميمهم على القضاء على دولة الإسلام فى ذلك الطرف القصى من جنوبى القارة الأوربية ،حتى أصبح طابع حرب غرناطة طابعًا صليبيًا خالصا تعاونت فيه جميع بلاد أوربا الغربية · وانعكس ذلك أيضا على معاملة المسلمين الذين كانوا يعيشون فى قشتالة وأرغون والبرتغال وهى الدول التى كانت تتقاسم شبه الجزيرة ، وكان هؤلاء المسلمون الذين اصطلح على تسميتهم بـ « المدجَّنين » (mudéjares) ينعمون حتى ذلك الوقت بتسامح نسبى، فتغيرت العلاقات معهم خلال القرن التاسع الهجرى وأصبحوا يلقون من الحكومات المسيحية معاملة تزداد خشونة وسوءاً يومًا بعد يوم ·

ولنا أن نتصور كذلك مدى تدهور الأحوال الاقتصادية فى غرناطة الإسلامية نتيجة للضعف السياسى المتزايد ، فقد أدت الثورات والانقلابات بالإضافة إلى استيلاء المسيحيين على الثغور والمرافىء الرئيسية للبلاد إلى كساد التجارة ، وكانت الحملات التى لاتفتأ قشتالة تشنها على الأراضى الغرناطية تهدف إلى انتساف البسائط وإتلاف الزراعات وانتهاب مايقع فى أيدى الغزاة من مواشى وأغنام · ثم كانت الإتاوات التى فرضها القشتاليون على ملوك غرناطة كلما عقدوا هدنة أو صلحًا ، فيضطر الملوك إلى فرض مزيد من الضرائب على الرعية · كل ذلك أثقل كاهل الغرناطيين ، وأدى إلى ارتفاع أسعار السلع وإلي تضخم متزايد · وقد كشفت لنا الوثائق الغرناطية التى حققها المستشرق الغرناطى لويس سيكودى لوثينا – وهى فى جملتها عقود بيع وشراء وعقود زواج وهبات ومعاوضات – عن مدى ماكان يعانيه الغرناطيون من وطأة الغلاء وتردى الاقتصاد ، هذا مع قلة موارد غرناطة الإسلامية بطبيعتها ، فهى منطقة أكثرها جبلى وعر يسوده الجفاف · وكأن ذلك لم

يكن كافـيا ، إذ انتشرت فى البـلاد خلال القرن التاسع بعض الأوبئة مثل الطاعون ، كما اجـتاحت حقولهـا أسراب من الجراد غير مرة ·

وعلى الـرغم من كل هذه الأحـوال التى كانت منذ أوائل القـرن التاسع توحى بقـرب النهاية فـقد اسـتطاعت هذه الدولة الأسـلاميـة الصـغيـرة التى تركت تواجـه مصيـرها وحدها بغيـر أن تتلقى من العالم الإسـلامى حولهـا معـونة تذكر - نقـول استطاعت غرناطة أن تقاوم على مدى قرن كامـل · بل إننا رأينا هذا الشعب المـسلم مع قلة عدده وإحاطة الأعداء به ينهض بعد كل عثرة فإذا به وكأنه قـد دبت فيه حيوية جديدة ، فـلا يكتفـى بأن يصد هجـمات الأعـداء بل يتـقـدم جنوده وأكـثـرهم من المـتطوعـين فـيـتحـولون إلى الهـجـوم ويتوغلون فى الأراضى القشتاليـة المتاخمة لهم ويـوقعـون الـهزائم الفـادحة بجـيوش الأعداء كـما حدث فى سنة ٨٥٢ (١٤٤٨) حينمـا اجتـاح الغرناطيـون أرض قشـتالة فأوغلوا فى مناطق مرسـية وجيان ووصلوا إلى قرطبة عاصمـة الخلافة القديمة · بل إننا نرى الغـرناطيـين فى سنوات الحـصار الأخيـرة فى عهد السلطـان أبى الحسن ثم فى عهد ابن أخيه أبى عـبد الله محمد آخر ملوك غرناطة - يكسـرون طـوق الحـصار وينتـقلـون مـن الـدفـاع إلى الهـجـوم فى بسالة منقطعة النظير ·

هذه الفـورات التى نـراها مـتكررة متجددة على طول القرن التاسع تحتاج إلى وقفـة لتفسيـرها · فهى تدل على أن هذا الشعب كان فى جوهره لم يطرأ إليه الفساد الذى أصاب كثيراً من قياداته · فعلى حين نرى التنافس على العـرش يفـرق صفـوف الأسرة الحاكمة ويحمل بعض أفرادها على الخيانة الصريحة لقضية الدين والوطن فإن جماهير الشـعب كانت أنضج وعيا وأسلم كيانا من هؤلاء الأمـراء ، بل لعل المحن التى كانوا يتـعرضون لهـا هى التى زادتهم صـلابة وقوة · ولهـذا فإننا ننكر مـايردده كثـير من المؤرخـين حينما يتـحدثون عن أسباب انهيار الدولة الأنـدلسية فى عصرها الأخير إلى ماشـاع فى أوساط الشعب من فساد أوما ينسبونه إلى الأندلسيين من الميل إلى الترف والإغراق فى اللذات · لقد كان

الشعب الأندلسي واعيًا ومدركاً لهذه الحقيقة : وهى أن بلاده كانت آخر خط دفاعى عن الإسلام فى مواجهة أوربا المسيحية ، فجاهد فى الذود عن دينه ووطنه بكل ما وهبه الله من قوة ، ولو أن قيادات هذا الشعب كانت على مستوى التبعة ، ولو أن المسلمين فى البلاد الإسلامية المجاورة كانوا أقل سلبية وانصرافًا عن واجب الجهاد لما انتهى أمره إلى ماانتهى إليه .

وإذا كنا قد تحدثنا عن الفرقة والتنازع بين أمراء الأسرة الحاكمة وكون ذلك هو السبب الأكبر فى انهيار دولة الإسلام فى الأندلس فإن الانصاف يقتضى منا أن نعترف لبعض ملوك هذه الدولة بالنخوة والشجاعة ، وكثير منهم كان يتميز بالدهاء وحسن التدبير ، فقد عرفوا كيف يحاربون أعداءهم بمثل سلاحهم ، إذ إنهم كانوا يعملون أيضا على التضريب بين ملوك إسبانيا المسيحية بعضهم ببعض ، فحالفوا ملوك أرغون مثلا على ملوك قشتالة وكانوا يعملون على إيواء الثائرين والمتمردين من مملكة قشتالة وتشجيعهم على إعلان الثورة على ملوكهم ، واستطاعوا بذلك أن يمدوا فى عمر دولتهم ماكان يبدو أنه على وشك الانقطاع . وأعانهم على ذلك ماكان يضطرب فى الدول المسيحية المجاورة لهم من ثورات من جانب النبلاء الإقطاعيين أو ما كان يشتعل بينها من حروب أهلية . ولهذا فقد استطاعوا الحفاظ علي دولتهم الهشة طالما بقيت إسبانيا المسيحية موزعة بين قشتالة وأرغون ونبارَّة ، بالإضافة إلى البرتغال المجاورة . ولم تسقط دولة غرناطة إلا بعد أن توحدت قشتالة وأرغون بعد زواج ملكة الدولة الأولى إيزابيل من ملك الدولة الثانية فرناندو فى سنة ٨٧٣ (أكتوبر ١٤٦٩) فقد أصبح هذا الزواج وما أعقبه من اندماج الدولتين هو أكبر مسمار يدق فى نعش آخر دول الإسلام فى الأندلس .

ولست أشك فى أن هذه الصلابة التى تميز بها شعب غرناطة المسلم حتى فى سنوات محنته الأخيرة إنما ترجع إلى عمق تدين الأندلسيين وتمسكهم بالقيم الإسلامية على نحو نعتقد أنهم فاقوا فيه كثيرا من الشعوب المسلمة فى المشرق . فقد ظلت الأسرة الغرناطية - وهى نواة الجماعة - متماسكة وعلى قدر كبير من الألتزام بالقيم الخلقية ، ولم يصبها ما أصاب الأسرة

الحاكـمة من تفكك وفـرقة . ولعل مـما يدل على ذلك أن الحياة الثقـافية والعلمية ظلت فى غـرناطة الإسـلاميـة خـلال هذا القـرن الأخـيـر على جـانب كـبـيـر من النشاط. وعلى الرغم مـن قلة ماوصل إلينا من النتـاج الفكرى الغـرناطى ومن ضيـاع أكثره فإن الشواهد التى جمعناها حول هذا النتاج تدل على أن هـذا الشعب الأندلسى ظل كمـا كان أسـلافه من أكـثر الشـعوب الإسلامية حرصـاً على التعلم وإقبالا على الأخذ بأسباب المعرفة . فنحن نجد فيما أثبـتة لنا كـتب التـراجم عدداً كـبيـراً من الفـقهـاء والمحـدثين والنحـآة والشعـراء والأطباء وعلماء الفلك والرياضيات يبرزون فى القـرن التـاسع . وكـثـيـر من هؤلاء العلماء ورجال الثقـافة كانوا يزاوجون بين نشاطهم الـعلمى والجهاد بأيـديهم . حتى أهل الحـرف والصنـاعـات كـانوا يزاولون أعمـالهم وفنونهم فى همة لم تفـتر أبدا . والدلـيل على ذلـك مـــاوصل إلينـا من أوصاف للصناعات والفنون الغـرناطية مما ورد فى كتب الرحلات سواء منها الأوربية أو العربية ، كما نرى فى رحلةNavajero الإيطالى ورحلة عـبـدالـبـاسط بن خليل المصرى .

شهود على النهاية الأخيرة :

أشرنا فـيما سبق إلى ندرة المـصادر التاريخية التى تطلعنا على أخبار هذه الفترة الحزينة من تاريخ غرناطة الإسلامية . ومع ذلك فقـد بقيت من هذا التـراث الغرناطى بقية صـالحة نعد كاتبيهـا شهودًا على هذا العصر الذى أسلمت غرناطة فيه الروح وإن كانت قـد قاتـلت فـى سبيل وجـودها إلى آخر رمق .

هؤلاء الشـهود عديدون مـنهم فقـهاء ونحاة وأدباء ورحالة وكتاب فهارس جمعوا فيهـا تراجم شيوخهم ، غيـر أننا سنكتفى بشاهديـن مـتمـيـزين أحـــدهمـا أديب مـوسـوعى هو أبو يـحـيى ابن عـاصم ، والآخـر شـاعـر مـن عـامة الشـعب هو عبد الكريم البسطى .

أما الأول فهو أبو يحـيى محمد بن محـمد بن عاصم القـيسى (المـتوفى فى نحو سنـة ٨٥٧ / ١٤٥٤) الذى كان من أسرة غرناطية اشتـهرت بالعلم وتولى كثير من أفرادها مناصب كبيرة فى الدولة ، فقد كـان جده الأعلى مـحـمد بن عـاصم من

أعلام القرن الثامن الهجرى ، واشتهر بالعلم والفروسية · وابن عم أبيه أبو يحيى محمد بن عاصم كان فقيها وكاتبا وصاحباً للأحكام فى غرناطة أخذ العلم عن أبى إسحاق الشاطبى الأصولى صاحب « الموافقات » وعرف بالشهيد لأنه استشهد فى الوقعة التى أخذ النصارى فيها مدينة أنتقيرة سنة ٨١٣ (١٤١٠) · ووالده هو الفقيه المشهور أبو بكر محمد بن عاصم (ت ٨٢٩ / ١٤٢٦) قاضى الجماعة بغرناطة ومؤلف كتاب « تحفة الحكام » وأرجوزة فى الأصول وقصيدة فى القراءات وكتاب « حدائق الأزاهر فى مستحسن الأجوبة المضحكة والحكم والأمثال والحكايات والنوادر » وغير ذلك من المؤلفات التى تشهد بسعة معرفته ·

أما أبو يحيى هذا فقد ولد فى أواخر القرن الثامن ودرس على أبيه وغيره من شيوخ غرناطة ، ويظهر أنه تولى الكتابة الديوانية بعد وفاة أبيه الذى كان يتولاها أيضا (فى سنة ٨٢٩ هـ) وبعد ذلك بسنوات ولى قضاء الجماعة فى غرناطة سنة ٨٣٨ (١٤٣٥) مع حداثة سنه آنذاك ، فقد كان يناهز الأربعين من عمره ، وكان من أصفياء سلطان غرناطة محمد الأيسر الذى ولى الملك خمس مرات (مابين سنتى ٨٢١ و ٨٥٨ / ١٤١٩ - ١٤٥٤) وفى سنة ٨٥٧ (١٤٥٣) قدمه محمد الأيسر فى ولايته الأخيرة للنظر فى شئون الفقهاء ، وذلك يعنى الإشراف على الحياة الفقهية والثقافية كلها · ويقول مترجموه إنه ولى اثنتى عشرة خطة ما بين القضاء والكتابة والوزارة والخطابة والإمامة وغير ذلك من التضلع فى سائر العلوم ، ولهذا لقبه معاصروه بـ « بن الخطيب الثانى » ·

ويبدو أن تشبيهه بالوزير الكاتب المشهور ابن الخطيب كان صحيحا تماما ، فقد خاض غمار السياسة كما فعل صاحبه من قبل ، وأدى به ذلك إلى نهاية مأساوية فاجعة ، إذ إنه لقى مصرعه أيضا من جراء ذلك ، فقد نشبت الثورة ضد محمد الغالب بالله المعروف بالأيسر ، وهى الثورة التى قتل فيها مخدومه ، وقام الثوار بذبحه هو أيضا فى نحو سنة ٨٥٧ (١٤٥٤) بسبب صلته الوثيقة بهذا السلطان · وهذا مظهر من مظاهر المحنة التى طالما أودت بالمثقفين والعلماء على أيدى المتوثبين على السلطة ·

ولابن عـاصم مـؤلفـات عـديدة أهم ماوصل إلينا منـها كتـابه « جنة الرضا فى التـسليم لما قـدر الله وقضى » وكـان من حسن الـحظ أن قام بتحـقيق هذا الـكتاب ونشـره البـاحث الأردني الدكـتور صـلاح جـرار فى ثلاثـة مـجلدات بعـمـان سنة ١٩٨٩، فـأسـدى بذلك خـدمـة جـليلة للمشتـغلين بالدراسات الأندلسية ولاسـيما فيما يتعلق بتاريخ دولة الإسلام فى غرناطة خلال القرن التاسع الهجرى ·

وقـد عـاش ابن عـاصم خـلال هذه السنوات المـضطربة التى توافـق النصف الأول من القـرن التاسع ، وتوثقت صلتـه بالسلطـان مـحـمـد الأيسـر الذى ولى له الكتـابة والوزارة والقـضـاء · وكـان هذا السلطان أعظم ملوك غرناطة خـلال القرن التـاسع على الـرغم من الأزمـات التى أحاطت بفترة ولايتـه ، إذ خلع عن عرشه أربع مـرات من جـراء مـا كـان يدور فى بلاطه من مؤامـرات وثورات لقى مصـرعه هو وصفـيه ابن عاصـم فى آخرها ، ومع ذلك فقـد كان من أكثر ملوك عـصره دهاءً ومـهارة فى إدارة شـئون الدولة ، وكـانت سيـاسته تقـوم على المزاوجة بين مـهادنة أعدائه من ملوك قشتالة إذا رأى ذلك كفيلا بتوفيـر جو من الأمان لمملكـته ، فإذا لم يجـد مناصاً من المـواجهـة خاض غـمار الحـرب مـجـاهـدًا بـنفـسـه أو بقـواده ، وكـثـيراً ما أحـرز انتصـارات كبيـرة على أعدائه القـشـتاليين كـما حـدث فـى سـنة ٨٥٢ (١٤٤٨ - ١٤٤٩) حينما أوقع بهم هزائم متوالية سجلها ابن عاصم فى رسالة مـشـهورة « فى قـصـد التنبيـه على هذه اللطـائف والإيقـاظ لأرباب الـدولة من الغفلة » وقـد أورد هـذه الـرسالـة بنصـها فى كـتابه « جـنة الـرضا » (٢ / ٢٨٩ - ٣١١)

على أن ابن عـاصم بـحكم تمـرسـه بالسياسة فى أيامه ومعـرفته ببواطنها ماكان لينخدع بهذه الانتصارات ، فقد كان يعرف أن الجـو السيـاسى فى غـرناطة بما كـان يستشـرى فيه من فساد ومـؤامرات وأطماع ماكـان ليضمن الاستـقرار الذى يؤدى إلى صلاح الأحـوال ، ولهذا فإن جوالتـشاؤم هو الذى يسود معظم صـفحات الكتاب ،

ويكفى أن نشير إلى عنوانه الذى يوحى بالاستسلام لقدر محتوم ماكان لبلاده منه مفر . فالهدف الأساسى من كتابه هو تذكير القارىء بأن الأيام دول وأنه لاثبات لحال بل ينبغى على العاقل أن يكون حذرًا من صروف الدهر وتقلب الدول : « أما بعد ، فإن فى حوادث الأيام لأولى الأفهام اعتبارًا ، وفى طوارق الليالى لأرباب الهمم العوالى اختبارًا ، وفى مجارى الأقدار للذوات الشريفة الأقدار استظهاراً . . . » (ص ٩٤ من المجلد الأول) ثم يقول : « وإنى وقفت بالحنكة والتجربة من استحالة أحوال الدنيا وسرعة تقلبها إلي الغاية القصيا مما كان لى مدركا علميا وحاصلاً حصولاً حكمياً على عجائب حتى ليس فيها عجائب ، وغرائب تستحلى بها أسمار وتحدى نجائب ، شاهدت فيها أنواعًا من العبر ، وعاينت بها أشباها من الآيات الكبر ، ووقفت منها على أنموذج من قيام الساعة ، واعتبرت منها بمختلف من عاقبة المعصية والطاعة ». (المجلد الأول ١ / ٩٥)

وهو لهذا يستشهد ببيتين لأبى العتاهية فى الحديث عن تقلب الدول وزوال السلطان من ملك إلى آخر :

ما اختلف الليل والنهار ولا
دارتْ نجوم السماء فى الفلك
إلا لنقل السلطان عن ملك
قد انقضى ملكه إلى ملك
(١/ ٩٧)

إحساس ابن عاصم بقرب وقوع البلاء وتوقع النهاية - مع أن غرناطة لم تكن فى أسوأ أحوالها أيامه - هو الذى يحمله على أن يبنى كتابه على أنواع ما سماه بـ « الابتلاءات » ، فهو يقول « إن هذه الابتلاءات المعهودة فى هذه الدار لايخلو أن تكون متوقعة فى الاستقبال أو واقعة فى الحال ، وأيًا ما كانت فلا يخلو أن تكون فى المقتنيات العزيزة على النفوس كالمال والجاه وما أشبه ذلك أو فى النفوس ومالحق بها من أعضاء وقوى . . . ثم لا يخلو الواقع من ذلك فى الأموال وماشابهها أو فى النفوس وماشاكلها أن يكون مأمول الجبر مرجو الارتفاع أو غير مأمول الجبر ولا مرجو الارتفاع » ولهذا فهو يوزع تلك « الابتلاءات » على ست صور :

١ - أن يكون الإبتلاء فى القتنيات العزيزة على النفوس كالمال والجاه وما أشبه ذلك متوقعا فى الأستقبال وليس واقعا فى الحال .

٢ - أن يكون الأبتلاء فيها واقعا فى الحال وهو مأمول الجبر ومرجو الزوال.

٣ - أن يكون الأبتلاء فيها واقعاً فى الحال إلا إنه غير مأمول الجبر ولامرجو الزوال .

٤ - أن يكون الابتلاء فى النفوس أو مالحق بها من أعضاء وقوى متوقعًا فى الاستقبال وليس بواقع فى الحال ·

٥ - أن يكون الابتلاء فيها فى الحال وهو مع ذلك مرجو الزوال ·

٦ - أن يكون الابتلاء فيها واقعًا فى الحال إلا أنه غير مرجو الارتفاع والزوال · (١/١٠٨ - ١٠٩) ·

ثم يفصل أنواع هذه الابتلاءات ويذكر تحت كل نوع منها جزئيات متعددة ويأتى عليها بشواهد كثيرة ، تكاد كلها تمثل جو الخوف وتوقع البلاء فى كل لحظة · إذ يقول فى الحديث عن الصورة الأولى للابتلاء « فما من قنية مالية أو جاهية إلا وهى بصدد الذهاب والزوال فى كل لحظة » (١/١٧٩) وهو يضرب على هذه الصورة مثلا بالثورة التى قام بها الرئيس إسماعيل أحد أمراء بنى الأحمر فى قمارش Comares فى صفر سنة ٨٥٤ (منتصف مارس ١٤٥٠) منتزيا على السلطان محمد الأيسر (التاسع) وكان الرئيس إسماعيل هذا لاجئا إلى قشتالة فى خدمة ملكها · فحرضه الملك القشتالى على الثورة وأمده ببعض قواته فاحتل قمارش ثم مالقه Malaga وكانت فتنة كبيرة تداركها السلطان إذ حاصره وضيق عليه حتى انفض عنه أنصاره وانتهى الأمر بمقتله (١/ ١٩٠ - ١٩٣) ·

وعلى الرغم من أن ابن عاصم يذكر من أنواع الابتلاء مايؤمل فيه الجبر ويرجى الزوال فإن أكثر حديثه عن الحالات التى لايرجى فى الابتلاء بها ارتفاع ولازوال ، وهو ما يؤكد الصورة القاتمة التى تغلب على كتابه · فهو يردد مادرج عليه المؤلفون ولاسيما فى هذا العصر من أن الزمان إلى فساد ، وهو فساد لامحيص منه

ولاراد له، إذ يقول : « وقد انتصف القرن التاسع، وتباعد بنا عن مظان رحمة الله الوطن الشاسع » (١ / ١٠١) .

وحينما يتحدث عن السلطان نحس بالخوف الذى يتملكه ، فقد كان الرجل قريباً من السلطان ، وهو يعرف أن الملوك فى جميع الدول الإسلامية كانوا قد تحولوا إلى طغاة مستبدين،ولهذا فإنه على حظوته من سلطانه وجاهه فى دولته يتوقع تقلب الأحوال فى أى لحظة ، ويحمله ذلك على المداراة ، فلا يصارح بنقد الملوك وإنما يحاول تلمس الأعذار لهم .

يقول : « السلطان مظهر لحكم الله فى الوجود ، وسبب يناط به ماقَدَّر الله من رزق أومنح من جود ، إلى سوى هذا من أحكام دائرة بين نقض وإبرام هو فيها بحسب إرادة الله مصرف » (١ / ٩٩) .

وهو يرى أن مصير السياسة إلى فساد، ولكنه يستند فى ذلك إلى حديث نبوى شريف حتى لايتهم بالنقد أو الاعتراض . وهذا الحديث هو « سيليكم أمراء يفسدون ، ومايصلح الله بهم أكثر ، فمن عمل منهم بطاعة الله فله الأجر وعليكم الشكر ،ومن عمل منهم بمعصية الله فعليه الوزر وعليكم الصبر» (١/ ١٠٠ والحديث فى مسند أحمد بن حنبل ١ / ٤٢٤) . ولهذا فإنه يلقى بالتبعة على الرعية ومن جديد يستند إلى الحديث النبوى « كما تكونون يولى عليكم » فيعلق عليه بقوله : « فالحق فيها أن نستغفر الله ونتوب إليه ، فيصلح لنا سيرتهم ونسترشد الله لبصائرنا وسيرشد الله بصيرتهم » (١ / ١٠٠) .

ويشارك ابن عاصم فى هذا الرأى مؤلف غرناطى معاصر له وكان مثله قاضياً للجماعة هو ابن الأزرق فى كتابه « بدائع السلك فى طبائع الملك » (الذى كتب سنة ٨٨٢ / ١٤٧٧) إذ يقول : « يجب على الرعية ملاحظة أن جور السلطان وعماله نتيجة أعمالها الحائل عن نهج الصراط السوى لما سبق من تقرير مدلول قولهم « كما تكونون يولى عليكم » وبذلك أجاب ابن الجزار السرقسطى عن المستعين ابن هود - أحد ملوك الطوائف - وقد تشكى إليه بعض رعاياه من بعض عماله :

نسبتم الجور لعمالكم

ونمتم عن سوء أفعالكم

لاتنسبوا الجور إليهم فما

عمالكم إلا بأعمالكم

تالله لو ملكتم ساعة

لم يخطر العدل على بالكم

(بدائع السلك ١ / ٢٣٥)

على أن المؤلف يعرف أن بقاء الإسلام فيما بقى من شبه الجزيرة رهين بائتلاف القلوب واجتماع الشمل ، وهو أمر لعل الأندلس هى خير نموذج لكونه حقيقة لامجال للشك فيها ، فالاتحاد والفرقة فى بلاد الشرق العربى قد يكونان دافعين إلى القوة أو الضعف ، أما فى الأندلس فهما خطتا وجود أولا وجود ، وقد فطن إلى هذه الحقيقة مؤرخو الأندلس منذ قديم . نراها مبسوطة فيما كتبه ابن حيان وابن حزم فى منتصف القرن الخامس الهجرى ، ومازال مفكرو الأندلس وصفوتها المثقفة ينبهون إليها ، فوعاها الشعب ولكن قياداته لم يستوعبوها كما ينبغى . يقول ابن عاصم : « ومن استقرأ التواريخ المنصوصة وأخبار الملوك المقصوصة علم أن النصارى - دمرهم الله - لم يدركوا فى المسلمين ثارا ، ولم يرحضوا عن أنفسهم عارا ، ولم يحرقوا من الجزيرة منازل وديارا ، ولم يستولوا عليها بلادًا جامعة وأمصارا ، إلا بعد تمكينهم لأسباب الخلاف واجتهادهم فى وقوع الافتراق بين المسلمين والاختلاف، وتضريبهم بين ملوك الجزيرة ، وتحريشهم بالكيد والخلابة بين حماتها فى الفتن المبيرة » (٢/٢٩٦ - ٢٩٧) ثم يقول وكأنه يتنبأ بالمصير الذى قدر أن يأتى بعد نصف قرن: « تعلمون حقا أن هذا الوطن الأندلسى كان قد تعين للهلاك بسبب هذا الخلاف، وتوقعت القلوب المشفقة حدوث الفاقرة بوقوع هذا الاختلاف » (٢ / ٣٠١) .

ولكن الملوك ظلوا سادرين فى فرقتهم وخلافهم ولم يستوعبوا دروس التواريخ المنصوصة ولا الأخبار المقصوصة ، فحلت الفاقرة ...

ترى هل استوعب ملوكنا وقادتنا هذا الدرس بعد خمسة قرون من سقوط غرناطة ؟

ومع ذلك فلكل قاعدة استثناء يؤكدها · فالمؤلف يذكر من العجائب استرجاع المسلمين لكثير من الحصون التى فقدوها ، وذلك في أيام الفتنة الناشبة بين يوسف بن أحمد بن نصر (يوسف الخامس) والسلطان محمد الأيسر ، فقد حمل كل من السلطان والثائر عليه راية الجهاد وتنافسا فى التصدى للعدو ، كسبًا لمشاعر الجماهير ، فكانت النتيجة أن أحرز كل منهما انتصارات هائلة ، ويبدى ابن عاصم تعجبه من ذلك إذ يقول إن هذا هو مالم يتح للمسلمين أثناء الاجتماع والألفة (٢/ ٢٧٩ - ٢٨٤) · ولم يورد ابن عاصم تفسيرًا لهذه الظاهرة التى قد يفهم منها نقض القاعدة المستقرة ، ولكن معاصره ابن الأزرق الذى تورك فى كتابه على مقدمة ابن خلدون فطن إلى تعليل يستند إلى نظرية ابن خلدون حول العمر الطبيعى للدولة ، حيث يقول : « وربما تحدث عند آخر الدولة قوة توهم أن الهرم قد ارتفع عنها ، ويومض ذبالها إيماضة الخمود كما فى الذبال المشتعل فإنه عند مقاربة انطفائه يومض إيماضة توهم أنها اشتعال وهى انطفاء »

عبد الكريم القيسى البسطى :

وهذا هو الشاهد الثانى على العصر . . لم يكن وزيرًا كبيرًا ولارجلا موسوعى الثقافة مثل ابن عاصم وإنما هو شاعر متواضع ينتمى إلى الطبقة المتوسطة أو دون المتوسطة ·

اسم هذا الشاعر عبد الكريم أو محمد بن عبد الكريم القيسى ، فهو ينتمى إلى نفس القبيلة التى ينتمى إليها ابن عاصم ، ولكن المصادر بخلت علينا بذكر أى شىء حول حياته · وكل ماعرفناه عنه إنما يرجع إلى ديوان له مخطوط عُثِر عليه فى المغرب فى خزانة الأوقاف ، وقد لفت انتباهى هذا الشاعر المغمور بقوة ، فقمت بالتعريف به والحديث عنه لأول مرة فى مقال طويل نشر بمجلة العربى التى تصدر فى الكويت منذ ست وعشرين سنة (فبراير ١٩٦٧) ثم أفرد له صديقى العالم المغربى الدكتور محمد بنشريفة دراسة جيدة نشرت فى بيروت سنة ١٩٨٥ ،

واضطلع بنشـر ديوانه الباحثـان التونسـيان الدكتور جـمعة شيخـة والدكتـور محـمد الهـادى الطرابلسى فى قرطاج سنة ١٩٨٨ ، وهى نشرة لابأس بها وإن كان عليـها كثير مما يستدرك ·

وينتمـى هذا الشاعر إلى مـدينة بسطة وكـانت من أهم ثغـور مـلكة غـرناطة ، ويبـدو أنه كان من أسـرة تشتـغل بالفقـه والتوثيق · ولسنا نعرف متى ولد ، ولكن نسـتـخلص مـن قـصـائده المؤرخـة ومن الإشارات فى ديوانه إلي الشخـصيات التى اتصل بهـا أن مولده كان فى أوائـل القرن التاسع · وكـان من بين هذه الشخصـيات ابن عاصم نفـسه الذى تحدثـنا عنه وعديد من مـعـاصريه · وفـى ديوانه تمدح ببلده بسطة ووصف جـمـيل لمتنزهاتهـا وروعـة طبيـعـتها ومـدائح لكبـار مـن أقـامـوا بها من قـضاة وقـواد ، وقـد تجول فى أنحـاء المملكة فرأينا شـعراً قاله فى مـالقة والمرية وهما كبريا مدن بلاده ، وينص فى قصيدة له على أنه عـمل إماماً فى مـسجـد برجة Berja (التابعة لمدينة المرية) لقاء أجر سنوى يـبلغ خـمـسين ديـناراً ·عـلـى أنـه بعـد ذلك انخرط فى سلك المجاهدين عن بلاده ، ويظهر أنه أسر فى إحـدى غارات العدو على حـدود بلاده وحـمل إلى مـدينة أُبَّذة Ubeda التى كانت آنذاك من ثغور قشتالة تنطلق منها حمـلات المسيحيين ، وظل فى الأسـر مـدة اسـتطالت بـعض الشىء ، ووصف لنا حياته فى الأسـر تصويراً يأخذ بمجـامع النفـس ، فـقـد كـان « العلج » النصرانى الذى ملكه يقـيده بكبول قاسـية ويكلفه بأعمال شاقة وصفها لنا بقوله :

فحصلت فى الأسر الذى أدواؤه
لرهينه من أعظم الأدواء ···

أجنى مذلته وضيق قيوده ···
بعد اجتناء العزة القعساء

مابين قوم كافرين تلونوا
فى كفرهم كتلون الحرباء

لايرحمون موحداً فى أرضهم
إن جاءهم يشكو بخطب عناء

ما إن أرى منهم سوى من قلبه
من قسوة كالصخرة الصماء

أصل الصباح مع المساء لديهم
فى الخدمة المعهودة الإعياء
حتى ضعفت ورق جسمى بينهم
وتغيرت عن حالها أعضائى
وأمَرُّ ما ألقاه أنى عاجز
عن أن أخص فريضتى بأداء

وعلى الرغم من هذه الحياة القاسية وهو فى الأسر فقد استروح عبد الكريم نفحة من نفحات الحب فهو يروى لنا كيف وقع فى غرام فتاة نصرانية تدعى إلبيرة Elvira ويروى لنا خبرها فى أبيات رقيقة جميلة :

وأعجب عباد الصليب صبية
سبتنى بوجه مثل بدر متمم
فبت حليف الهم من فرط حبها
وباتت بهجرى فى فراش تنعم
وكم نعمتنى من لذيذ وصالها
بمالم تصل نفسى له بتوهم
فقبلت منها الخد وهو مورد
وثنيت بالثغر المليح التبسُّم

ويظهر من هذه الأبيات أن الفتاة بادلته الحب ، ولم يكن ذلك أمراً غريباً فى العلاقات التى كانت تنشأ بين المسلمين والنصارى على الرغم من الحرب السجال التى كانت تدور بين الطرفين ·

ويستجيب الله لدعاء الأسير وصلاته، فيطلق سراحه ، ولا نعرف كيف تم له ذلك ، فلسنا نعتقد أنه استطاع أن يدفع الفدية التى طلبها العلج النصرانى ، وهى كما ذكر فى شعره « ألف من الصفر » أى من الدنانير ، ولعل مجاهدى غرناطة استطاعوا تخليصه من أسره فى إحدى غزواتهم التى أثخنوا فيها فى بلاد العدو على نحو ماذكر لنا ابن عاصم ·

وديوان عبد الكريم القيسى وثيقة نادرة تصور لنا من حياة غرناطة الإسلامية فى عصرها الأخير مالم تصوره كتب التاريخ · فهو مثلا يصور لنا الأزمة الاقتصادية التى كان الغرناطيون يعانون منها فى قصيدة وجهها إلي قاضى الجماعة بغرناطة أبى حامد ابن الحسن ·

رب بيت أكتريه لعيالى مع كرم

ودقيق أشتريه مع ملح ثم لحم

ولايزال يعدد لنا وجوه النفقات المختلفة : زيت الوقود والحطب والفحم والعسل والسمن والشحم والخليع (ضرب من اللحم المطبوخ فى الخل والأفاويه) إلى آخر ذلك · ويختم القصيدة عن قيمة المال فى هذا البلد الذى أكبت عليه النكبات من كل لون :

درهمى أكثر رفقا من أبى بى مع أبى

أنا للناس أخ ما دام عندى وابن عم

وإذا لم يك عندى هجرونى دون جرم

وفى شعره تسجيل لأحداث غرناطة ، فقد كان الرجل من أشد الناس إحساساً بمحنة وطنه ، فلا نراه بمعزل عما يجرى فى بلده من أحداث سياسية · لم يكن الرجل شاعر بلاط ولا كاتبا فى ديوان أمير ، بل هو رجل من عامة الشعب شارك فى المعارك الكبرى التى كانت بلاده تخوضها من أجل البقاء ، ولهذا فقد كان حديثه عن محنة غرناطة أكثر صراحة وأقل مداراة مما رأيناه لدى الوزير القاضى ابن عاصم · فهو ينتقد قومه من أهل الأندلس وينتقد الملوك والأمراء على حد سواء ·

وكان من الوقائع التى أوقع فيها القشتاليون بالمسلمين معركة استولوا فيها على حصن اللقون Castillo de Alicun فى يوم الجمعة ٢٣ من ذى القعدة سنة ٨٣٦ (١١ من يوليو ١٤٣٣) وكان هذا من أهم حصون وادى آش ، فنعى الشاعر على أهل المدينة إغفالهم الدفاع عن الحصن :

ياأهل وادى الأشا لادر دركم

ولابرحتم لَقىً للكرب والكمد

ضيعتمُ سفهاً حصن اللقون ولم

تراقبوا فيه حق الواحد الصمد

ثم تلت ذلك وقعة أخرى يسميها الشاعر كائنة لورقة وهى هزيمة ألحقها النصارى بالمسلمين فى ٢٥ من صفر ٨٥٦ (١٧ مارس ١٤٥٢)

وتدعى فى المراجع المسيحية باسم البورتشونس Alporchones . وفيها نظم عبدُ الكريم مخمسة أولها :

لمصاب أندلس تصوب الأدمع
ولما جرى فيها تذوب الأضلع
فلها مع الأعداء حال تفزع
تقضى بحسرة من يرى أو يسمع
وتكاد مهجته له تتصدع

وفى سنة ٨٦٤ (١٤٦٠) اشتدت وطأة النصارى على الأطراف الغربية لمملكة غرناطة وكان من أقسى ماوجه إليها من ضربات سقوط جبل طارق أو جبل الفتح، إذ بسقوط هذه القلعة المنيعة تمكن النصارى من قطع الإمدادات والنجدات التى اعتاد أهل المغرب أن يشدوا بها أزر إخوتهم مسلمى غرناطة. وأحس عبد الكريم كما أحس الشعب الأندلسى المسلم بعظم هذه الفاجعة فقال يرثى جبل طارق :

وقائلة مالى أراك مقطبا
كأنك للتقطيب هُدِّدْتَ بالذبح
فقلت دعينى الحزن فرض على الورى
أما قد حوى أعداؤنا جبل الفتح
حرام علينا البشر والسمح بعده
وفى القلب من آلامه أعظم الجرح

ولم يَمْضِ على هذه الكارثة إلا نحو سنتين حتى دوت فى أنحاء غرناطة أصداء حدث آخر هو سقوط أرشذونة Archidona فى سنة ٨٦٦ (١٤٦٢) بعد حصار طويل مرير ضربته عليها الجيوش النصرانية بقيادة لويس دى بيرنيا Luis de Pernia وبدرو فالدافيا Pedro Valdavia ، وديجو فيجيريدو Diego Fieguereredo والقومس (الكونت) دييجو فرناندث دى كوردوبا Diego Fernandez de Cordoba وقام أهل أرشذونة وقائدهم إبراهيم بمقاومة باسلة أبدوا فيها كل ألوان البطولة حتى كادوا يهزمون محاصريهم غير مرة ولكن العدو تكاثر عليهم حتى اضطروا للاستسلام .

ويصور لنا عبد الكريم هذه الوقعة فى قصيدة أولها :

مخايل هذا الحال تؤذن بالهلك

وتقضى لنا بالذل والعز للشرك

ويتأمل أحوال الأندلس وما كان يجرى بين أمرائها من التنازع على السلطان ونبذ تعاليم الدين على حين كان العدو آخذًا بمخنق البلاد ، فيطلقها فى وجوه أولئك الحكام الظلمة المستخفين بشعبهم صرخة احتجاج لاتعرف المداراة :

ونحن على نهج الشتات مسيرنا

لإدراك مال المسلمين أو الملك

وهيهات من إدراك حق بباطل

وغش وتدليس وبهتانٍ آو إفك

فوا أسفا للدين أهمل حقه

وقوبل منه الستر بالكشف والهتك

أفيقوا أفيقوا واهجروا النوم إنه

حديث صحيح ما أقول وما أحكى

غير أن ملوك غرناطة ظلوا « على نهج الشتات » وكان ما لابد أن يكون، فلم تمض على تلك الواقعة ثلاثون سنة حتى نفذ قضاء الله لادافع لأمره ولامرد لحكمه ... وسقطت غرناطة ولله وحده البقاء .

لقد كان صوت عبد الكريم القيسى من آخر الأصوات التى انطلقت بالشعر العربى فى آخر قطعة بقيت للإسلام من أرض الأندلس فى مملكة متداعية كأنها كانت تنشد مع الشاعر قوله :

إنما الدنيا سراب

لاح أو أضغاث حلم

محمود على مكى

عضو المجمع